أ.د. علي أسعد وطفة
جامعة الكويت

التعصب في العالم العربي خطر وجودي:
أين معادلة التسامح في التربية العربية ؟

" ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية "
النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم

مقدمة :

يشكل مبحث التعصب حقلا معرفيا يتوجسه الباحثون ، وذلك لما ينطوي عليه هذا الموضوع من حساسية وخصوصية. **فقضية التعصب ما زالت تسجل نفسها في عمق الحياة الفكرية العربية "تابو" مدجن بكل أنواع المنع والقمع والخوف** ، وهي في هذا المدار المفعم بالخطر القضية التي تشكل واحدة من أهم القضايا الاجتماعية التي يغلفها الغموض والضبابية في المجتمعات العربية المعاصرة .

إن الكشف عن المخاطر الاجتماعية وفهم الواقع بكل ما ينطوي عليه من أمراض ونقائص وعيوب يشكل اليوم منطلقا علميا وموضعيا يمكن أن يوظف في خدمة المجتمع في مختلف مستويات وجوده وفعالياته الثقافية والعلمية والاجتماعية . فالكشف العلمي عن مكامن الخطر الفكري والاجتماعي يشكل منطلقا لمواجهة التحديات التي تعتمل في قلب الحياة الاجتماعية كما يمكنه أن يدخل في بنية استراتيجية علمية تهدف إلى تشخيص الحياة الاجتماعية والكشف المبكر عن أمراضها ومعالجتها .

فالتعصب كان وما زال داء الشعوب ومرضها العضال ، إنه الخطر الداهم وسرطان الأمم ، ومن هنا تأتي أهمية الكشف المبكر عن دواهي هذا الورم الخبيث من أجل استئصاله وحماية جسد المجتمعات من آثاره المدمرة .

فمجتمعاتنا العربية تعاني كما هو الحال في كثير من **المجتمعات الإنسانية المعاصرة من هذا الداء الصامت الذي يفتك بكل المعاني الإنسانية عندما يستفحل ويأخذ مدَه ومداه.** وتأسيسا على هذا يمكن القول بأن دراسة هذه القضية والكشف عن مجاهلها يشكل نوعا من الاختبارات الوقائية التي يمكنها أن تكشف عن جذور هذه الظاهرة واستشراف ما تشكله من خطر وجودي .

لقد أفرد الباحثون لقضية التعصب مباحث عديدة ولكن هذت المباحث تقع غالبا في مجال الدراسات النفسية والسيكولوجية ، وهو المدخل المشروع الممكن لهذه القضية الشائكة المعقدة. ويعود غياب الدراسات السوسيولوجية إلى جملة من الصعوبات المنهجية والحساسيات التي تفرضها قضية التعصب في الوطن العربي. **وليس لنا أن نتنكر لأهمية الدراسات السيكولوجية** التي أجريت في هذا المجال والتي تختلف منهجيا وغائيا إلى حدّ كبير عن الدراسات السوسيولوجية التي تقتضي مواجهة الواقع الاجتماعي والحفر في تضاريسه بجرأة أكبر وعلى صورة مواجهة لا لبس فيها أو غموض .

فهذه القضية أشبه بحقل من الألغام وعلى الباحث عندما يحفر حول هذه الألغام أن يتوخى الحذر لأن هذه الألغام قابلة للانفجار في أي لحظة . وهذا يعني أن الباحث الاجتماعي أو التربوي عندما يبحث في هذه القضية فإنه ومن حيث لا يدري قد يثير شجونها ويغذيها ويعرض نفسه للمساءلة . ومن جهة ثانية فإن الدوائر العلمية والسياسية غالبا ما تعمل على وضع هذه القضية في دائرة الملفات الصعبة والحساسة التي يجب أن تكون خارج دائرة المناقشة والدراسة لاعتبارات شتى منها :

- بعض هذه الدوائر تريد أن تقدم صورة مثالية لمجتمعاتها خالية من أية عيوب أو مظاهر غير حضارية لهذه المجتمعات مثل التعصب والعنصرية والتسلط والفساد الاجتماعي.

- بعض هذه الدوائر تخشى إثارة هذه القضايا خوفا من النعرات التعصبية التي قد تنعكس سلبا على طبيعة الحياة الاجتماعية .

- بعض هذه الدوائر ترى أن الحديث واللغو في مثل هذه القضايا يؤججها، وحال الباحث فيها كحال الذي يحرك الجمار الهامدة فيؤججها ويعلي من سعيرها، ولذلك فإن هناك حالة من المنع المبطن والاستهجان الكبير للأبحاث والباحثين في مثل هذه القضايا .

- بعض المؤسسات توظف وبدرجة عالية هذه التناقضات الاجتماعية التي تتصل بالتعصب والتعنت وذلك من أجل أن تبني رصيدا ثقافيا وسياسيا يوظف في خدمتها ومثال ذلك : الأحزاب الطائفية والجماعات الدينية المتطرفة والمؤسسات التي تقوم على أساس عرقي وجغرافي .

ومع أهمية الأسباب التي يمكن أن ترصد في هذا الخصوص فإن **الدراسات العلمية للواقع تجأر بحقيقة في منتهى الأهمية وهي أن الكشف العلمي عن الأمراض الاجتماعية هو السبيل الأهم والأكثر ضرورة في محاربة هذه المظاهر وفي محاصرة آثارها السلبية في المجتمع والحياة.**

لقد لاحظنا على مدار عدد كبير من البلدان العربية حضور بوادر تعصب تتجلى بصيغ مختلفة ، خفية في أغلب الأحيان صريحة أحيانا ، ولاحظنا في سياق ذلك أن بعض المؤسسات الاجتماعية والثقافية تعمل بصورة واعية أحيانا لا شعورية في أغلب الأحيان على تعزيز المظاهر التعصبية وتأصيلها في النفوس حقيقة قاتلة مدمرة .

ومن هنا يأتي هاجس البحث في هذه القضية وتنهض دوافع العمل على رصد معالمها. لأن الملاحظات قد تكون خادعة أحيانا ولأن الحقيقة يجب أن تخرج من دائرة الملاحظة لتأخذ مسارها العلمي في سياقات تحكمها مقادير إحصائية وكيفيات علمية تحددها وترسم أبعادها وتدلل على وجودها بمقاييس الواقع واسقاطاته .

في مفهوم التعصب :

يعد مفهوم التعصب من المفاهيم الإشكالية التي تنسج حضورها الكبير في أدبيات العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويمكن لنا في هذا السياق أن نميز في التعصب أشكالا مختلفة ومتباينة، فهناك التعصب العرقي، والتعصب الثقافي، والتعصب الديني، والتعصب الطائفي. ومع ذلك كله فإن **التعصب في مختلف صوره وتجلياته يؤكد على جوهر واحد قوامه الانقياد العاطفي لأفكار وتصورات تتعارض مع الحقيقة الموضوعية.**

فالتعصب Fanatisme قد يأخذ صورة عقيدة دينية أو سياسية متطرفة تتميز بدرجة عالية من الانغلاق والتصلب، حيث تحتل إرادة التغلب، وإرادة الإقناع. ولقد ظهر هذا المفهوم مع مفاهيم التعددية السياسية وترافق مع مفهوم التسامح الذي يتعارض مع مفهوم التعصب(1).

يعرف التعصب بأنه: تشكيل رأي ما دون أخذ وقت كاف أو عناية للحكم عليه بإنصاف، وقد يكون هذا الرأي إيجابيا أو سلبيا، ويتم اعتناقه دون اعتبار للدلائل المتاحة. **ويعني التعصب أيضا**: الرأي السلبي تجاه أفراد ينتمون إلى مجموعة اجتماعية معينة ، حيث ينحو الأفراد المتعصبون إلى تحريف وتشويه وإساءة وتفسير، بل وتجاهل الوقائع التي تتعارض مع آرائهم المحددة سلفا. فقد يعتقد الشخص المتعصب مثلا بأن جميع الأفراد المنتمين إلى سن معينة، أو أصل قومي أو عرق أو دين أو جنس أو منطقة في بلد ما، كسالى، أو عنيفون، أو أغبياء، أو غير مستقرين عاطفيا أو جشعون(2). **وقد عرّفه قاموس لاروس**

الفرنسي بأنه " **حماس أعمى لعقيدة أو رأي أو مشاعر جارفة نحو شيء ما.** وفي هذا الصدد تبين الأبحاث الجارية حول التعصب أن الأشخاص الذين لديهم أحكام مسبقة تجاه جماعة ما يصدرون مثل هذه الأحكام تجاه أي جماعة أخرى، ويعبرون عن هذه العداوة ضد مختلف الفئات التي يتباينون عنها. ويلاحظ أيضا أن الأشخاص المتعصبين غالبا ما تكون لديهم أحكام مسبقة عن الآخرين مصحوبة بسوء طوية عميقة وحقد شديد تجاههم. وتعرف هذه الشخصيات بأنها شخصيات تعصبية سلطوية. وتتميز بأنها كارهة، ومؤمنة بالقدر، وذات رؤية كونية عنيفة، ، عدوانية، ومعارضة للفنطازيا، ولديها تصور مثالي للسلطة، وفكرها متجسد(3).

فالتعصب حالة خاصة من التصلب الفكري أو الجمود العقائدي، حيث يجسد اتجاهات الفرد أو الجماعة نحو جماعات أو طوائف أخرى. و يكشف المتعصب عن خضوع كبير لسلطة الجماعة التي ينتمي إليها، مع نبذ للجماعات الأخرى. ويرتبط بذلك ميل إلى **رؤية العالم في إطار جامد من الأبيض إلى الأسود، مع ميل إلى استخدام العنف في التعامل مع الآخرين** (Taylor&Ryan,1988)(4).

يعرف قاموس العلوم الاجتماعية التعصب بأنه " **غلو في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة بحيث لا يدع مكانا للتسامح، وقد يؤدي إلى العنف والاستماته** (5) . والتعصب كما تشير أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة يشكل موقفا أو اتجاها ينطوي على التهيؤ الفردي أو الجماعي للتفكير أو الإدراك أو الشعور والسلوك بشكل إيجابي أو سلبي تجاه جماعة أخرى أو أي من أفرادها.

والأساس في التعصب، وفقا للمصطلح الغربي: هو الحكم المسبق Pre-judging دون التحقيق في أسباب هذا الحكم تجاه جماعة أخرى ككل، أو تجاه كل فرد من أفرادها منفصلين(6).

وفي هذا السياق يرى كل من "جورج سمبسون" و"ميلتون ينجر" G. E. J and Simson. M. Yinger **أن التعصب، سواء أكان سلبيا أم إيجابيا، هو" موقف عاطفي وصارم تجاه جماعة من الناس"**، وبالتالي فإن التعصب لاينطوي على حكم مسبق فحسب، وإنما ينطوي أيضا على سوء هذا الحكم (7).

ويعرف التعصب الديني بأنه حالة " **من التزمت والغلو في الحماس والتمسك الضيق الأفق بعقيدة أو فكرة دينية مما يؤدي إلى الاستخفاف بآراء ومعتقدات الآخرين، ومحاربتها والصراع ضدها وضد الذين يحملونها**، وهي حالة مرضية على المستوى الفردي والجماعي تدفع إلى سلوكية تتصف بالرعونة والتطرف والبعد عن العقل والاستهانة بالآخرين ومعتقداتهم، وكثيرا ما يؤدي التعصب الديني إلى شق وحدة الأمة وإنكار الحقوق الاجتماعية والسياسية للفئات الأخرى، وهدم البنى الاجتماعية، ولعل في تعصب الصهاينه مثال على ما يتضمنه التعصب الديني من افتئات وعدوان، وفي تعصب الكاثوليك

والبروتستانت في ايرلندة ما يشير إلى كونه عامل هدام، وقد اتجهت جميع التيارات التحررية في العصر الحديث إلى إدانة التعصب الديني ومحاربته(8).

ويمكن أن تسهم **عدة عناصر في تشكيل مشاعر التعصب. وتشمل هذه العناصر: التنافس، الأفكار الدينية، الخوف من الغرباء، التشدد في القومية. وقد ينشأ التعصب عندما تخشى مجموعة ما أن يحرمها تنافس مجموعة أخرى، من الهيبة والمزايا والقوة والسياسة، أو الفرص الاقتصادية.** وقد أسهمت الأفكار الدينية، ولا سيما عدم التسامح مع الجماعات التي تعتنق دينا مغايرا، في تأسيس التعصب العرقي والقومي(9).

التعصب في العالم العربي:

ما زالت مشكلات التعصب بأشكاله المختلفة العنصري تشهد نموا كبيرا، وتعاظما مستمرا في المستوى الإنساني، فهناك ملايين الأفراد الذين يجدون مصرعهم تحت تأثير الغارات والإبادة الجماعية والحروب والطائفية والمجازر السياسية التي نشهد فسطا وافرا منها الآن . ويمكن لنا في هذا السياق أن نشير إلى وضعية الحروب الأهلية والطائفية والعرقية والحزبية في كثير من بلدان العالم مثل : كوسوفو وزائير والشيشان والكونغو والسودان والصومال، فالحروب التي تأخذ من حيث المظهر أشكالا دينية طائفية وعرقية تنتشر في بقاع واسعة من العالم، وتشكل تهديدا متواصلا للحياة البشرية، ويضاف إلى ذلك كله موجة التعصب العرقي التي تجد لها مكانا في البلدان الغربية اليوم، والتي تهدد الملايين ومن البشر والأطفال في العالم.

فالأنظمة الاستبدادية ، في مجتمعاتنا العربية، لم توفق في خلق الاندماج الاجتماعي بين فئات المجتمع، بل كانت تساعد أحيانا في خلق العزلة والتعصب والتباعد بين الجماعات. والمأزق يتجسد في عدم قدرة هذه الأنظمة على خلق نموذج وطني، يوحد بين الجماعات الفرعية، التي أصبحت تحقق أمنا للفرد الذي ينتمي إليها في ظل غياب أمن المجتمع والدولة، فأعضاء الجماعة الفرعية تمتاز بقوة روابطها وبدرجة عالية من الانغلاق بحيث تقود إلى درجة عالية من النرجسية .

وفي هذا المسار يمكننا استعراض مجموعة من المحاور التي تجسد الإشكالية المسببة للتعصب في الوطن العربي :

أولا **بنية العائلة العربية:** بالرغم من حدوث كثير من التغيرات الاقتصادية في الوطن العربي، إلا أن هذه التغيرات لم تؤثر بشكل فعال على بنية الأسرة العربية(**...**) فأصبحت الأسرة العربية تحتوي على عناصر مضادة للتغيير، وبناؤها التقليدي يوفر لها الأمن الاقتصادي والاجتماعي.

ثانيا البنية الدينية المذهبية: استطاعت البنية الدينية التقليدية المحافظة على استمراريتها لا بل تطورت المؤسسة الأصولية، وأصبحت تسيطر على معالم الحياة في المجتمع العربي والحالة اللبنانية تشكل لنا خير دليل، والدولة مارست دورا كبيرا في تطوير المؤسسة الدينية الأصولية.

ثالثا: البنية السياسية الاستبدادية : بالرغم من حدوث تغيرات في البنية السياسية العربية حيث أدخلت كثيرا من الدول العربية دساتير حديثة، إلا أن جوهر السلطة السياسية مازال تقليديا، فالأبوية والعائلية تمثل سمة أساسية في بنيتنا السياسية العربية.

رابعا: البنية الاقتصادية الهشة في مجتمعنا العربي، لقد عجزت السياسيات الاقتصادية العربية عن الإبقاء على اقتصادياتها التقليدية، وساعدت على تحطيمها، ويضاف إلى ذلك سوء توزيع الدخل بين فئات المجتمع، (...) مما أدى إلى ترسيخ وتثبيت البنية التقليدية للمجتمع العربي . " إن التعصب الموجود في المجتمعات العربية بدأ يهدد وجودها ووجود الأمة العربية بكاملها.

فالدولة بممارستها تعيد بشكل ضمني تأكيد ممارسات التعصب، عبر ما يسمى توزيع الوظائف الحساسة، أو الوظائف السياسية. وليس من الضروري أن يكون تعصبا معلنا، أو تفرقة معلنة، وإنما لاحظنا أن كل الجماعات، الأقليات، تلاحظ أدق التفاصيل، عندما يشكل مثلا مجلس وزراء، أو حينما يعين أفراد في مناصب معينة حساسة مثل: الأمن الدفاع الإعلام...الخ. فهي تستشعرها إذا كان في هذا التعيين تكافؤ لفرص، أو تجاوز، أو تحيز، وهذه مسألة لا يتحدث عنها الناس علانية أو على صفحات الجرائد .

فإسرائيل تحاول أن تحد من التعصب الداخلي، بتصديره إلى الدول العربية الأخرى، وتوحي للمواطن الإسرائيلي - سواء أكان اشكنازيا أم سفاديا- أنه في خطر، وأن الخطر هو عربي أو فلسطيني بالذات، ومن ثم تحاول أن توظف التنوع والتباين الداخلي في المجتمع اليهودي الإسرائيلي في عمليات صراع خارجي.

الخلفيات التربوية للتعصب :

هناك دلائل عديدة، وإن كانت غير موثقة بدراسات علمية بعدْ، تشير إلى **أن المؤسسة التربوية** في عدد من الأقطار العربية قد **التقطت جرثومة "التعصب" الديني أو الطائفي أو العرقي**. وهذا معناه بداية النفاق والشقاق في المجتمع لعدة أجيال قادمة من خلال آلية إعادة الإنتاج الثقافي- الاجتماعي- النفسي. والكارثة هي أن المؤسسة التربوية بدلا من أن تساعد المجتمع العربي على المواجهة العقلانية مع مشكلاته وتحدياته فإنها تضيف مشكلات وتحديات جديدة، أي أنها أصبحت بحد ذاتها مشكلة جديدة.

فالتعصب ينتقل من جيل إلى جيل، ومن الكبار إلى الصغار، إذ يتعلم كثير من الأبناء التعصب من آبائهم وأساتذهم. وفي المجتمعات المتعصبة، تجد قيم التعصب تعزيزا لها في إطار المؤسسات والقوانين والعادات، وفي هذا الصدد يلاحظ أن كثيرا من الناس يرفضون مشاعر التعصب التي تعززها مجتمعاتهم، وقد أدرك علماء الاجتماع احتمال أن يكون بعض الناس أكثر تعصبا من أناس آخرين. ويعتمد هذا الاختلاف على التباينات في خلفية الفرد، نفسه وتجاربه(10).

وينطلق التعصب في أعم أحواله من تصورات مسبقة تأخذ طابع نمذجة يصنف فيها الناس إلى فئات اجتماعية ودينية وعرقية تنسب إليها مجموعة من الصفات والخصائص العامة التي تنسب إلى جميع أفراد الجماعة موضوع التصنيف. **وتعود التصورات النمطية إلى تركيبة ثقافية يكتسبها الطفل من محيطه الاجتماعي خلال تنشئته المبكرة**، حيث يجري أن تنسب صفات محددة إلى مختلف الفئات الاجتماعية والدينية مثل: الخيانة والغدر والإلحاد والمذلة والخسة هذا من جهة السمات السلبية. **ويرى بعض المفكرين أن "التصورات النمطية " هي تصورات مشوهة ولا تعبر عن الواقع**، حيث هناك دائما فجوة قد تكون صغيرة أو كبيرة بين الحقيقة الموضوعية من ناحية وما يذهب إليه التصور النمطي من ناحية ثاني، ومع ذلك فإن التصورات النمطية شائعة بين الأفراد والجماعات لأن مثل هذه التصورات تعفي حامليها مشقة التعامل مع تفصيلات لا حصر لها في الواقع الإنساني والاجتماعي الذي يعايشه ويعيش فيه.

ويشكل اكتساب التصورات النمطية منطلقا أساسيا لحدوث التعصب وهي توجد في أصوله، وقد تتنوع هذه التصورات لتنسب إلى جماعات قومية أو دينية أو طائفية أو عرقية، بحيث أنه بمجرد مصادفة أي فرد منها، يقوم حامل التصور النمطي بتعميم الصفات المتضمنة في هذه التصورات بشكل عفوي. كأن يقال إن الإنجليز يتصفون بالبرودة، وإن الأمريكيين يتصفون بالسطحية، وعند مصادفة شخص قد لا يمكن معرفة ما إذا كان إنجليزي أو أمريكي (للتشابه الفيزيقي واللغوي بينهما)، ولكن بمجرد معرفة جنسيته، فإن حامل التصور النمطي يسترجع من حاسوبه العقلي كل الصفات الأخرى (غير المحسوسة) التي تعلم إلصاقها بجماعة هذا الشخص، ويفكر ويشعر نحوه طبقا لهذه الصفات. والتعصب بما يسبقه من تصورات نمطية هو شيء مكتسب يتعلمه الأطفال من الكبار من خلال آليات التنشئة الاجتماعية، ولا سيما في مرحلة الطفولة. وتشتد حدة التعصب أو تضعف وفقا لمجموعة من الفعاليات الثقافية والفردية التي تنمي التعصب وتنميه.

وتأخذ العوامل الثقافية أهمية كبيرة في تغذية التعصب. فبعض الأيديولوجيات الصريحة أو الضمنية تعمل على بناء التعصب ضد بعض الجماعات الإنسانية. فكثير من الأيديولوجيات العنصرية تستند إلى ادعاءات علمية (مثل أن أحد الأجناس أفضل بيولوجيا من الأجناس الأخرى)، أو من الكتب المقدسة

(مثل مقولات شعب الله المختار)، أو تاريخه (التشكيك في الدور السياسي لجماعة معينة، أو إلقاء المسؤولية عليها من نكبات أو هزائم سابقة). والأيديولوجيات التي تكرس التعصب، وتفضي عليه مبررات وجيهة، هي شأنها شأن "التصورات النمطية" (Strerotypes). فهذه الرؤى الأيديولوجية تشوه الواقع بمختلف تجلياته التاريخية والمعاصرة.

في مقالة له حول المنظومة الأخلاقية من منظور الدين والعلم، يرى عبد العزيز كامل أن التربية في الأسرة العربية تغذي **قيم التعصب العرقي والطائفي والمذهبي والديني وهي قيم تغرس جذورها في أجواء الأسرة والمجتمع ويتنفسها الطفل مع نسمات الحياة اليومية وعواصفها(11)**. وفي هذا المجال ينبه الباحث إلى قضية قلما يشار إليها في الأدب التربوي وهي أن القيم التي تغرسها الأسرة العربية هي قيم تسلطية تتنافى مع مقومات الوجود الإنساني، فماذا يبقى للحرية والفعل الديمقراطي **الحر مع قيم الطائفية والعشائرية أليست هي قيم الدمار والموت والعدم، أليست هي القيم التي تخرج الإنسان من دائرة إنسانيته**. فالأسر التي تعمل على تعزيز قيم الطائفية والقبلية والعرقية والتمييز بمختلف أشكاله تدعو إلى الموت والعبودية والعدم. وبهذا المعنى **فالتربية في الأسرة لا تقتل في الطفل مقومات إنسانيته ووجوده الإنساني فحسب بل تجعل منه جلادا لا يرحم قد يأخذ أقرب الناس إليه بسيفه ومقصلته**. ألا يمكن لنا أن نقول بأن مجازر الجزائر هي نتاج لصورة هذا الإنسان التي أنتجته تربية العبودية التي لا ترحم فقتلت في جزاري اليوم، طفولة الأمس وحولتهم إلى مجرد وحوش كاسرة، تفتك تعطشا إلى الدم، وتعبث حبا بالموت، وتلهو حبا بالدمار.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: **كيف يمكن لنا تعزيز قيم التسامح في مواجهة التعصب في مجتمعات لم تتجذر فيها تقاليد ديمقراطية مثل التمثيل الشعبي، ومشاركة المجتمع المدني في عملية اتخاذ** القرار؟ فالمجتمع العربي يشكو من علة غياب منظومة الثلاثية التي تشكل معالم النظام الديمقراطي، والمتمثلة في:

1. غياب الارتباط الفعلي بين مبادئ حقوق الإنسان.
2. غياب الأطر التنظيمية للتعددية السياسية.
3. غياب المشاركة السياسية كممارسة عملية للحقوق والحريات(12).

أعد المعهد العربي لحقوق الإنسان في تونس ندوة كان موضوعها **"التربية على حقوق الإنسان والديمقراطية"**، في شباط /فبراير 1993 وهي الأولى من نوعها في الوطن العربي، وقد أعد المعهد دراسة حول واقع التربية على حقوق الإنسان في الدول العربية شملت وزارات التربية في إحدى وعشرين دولة

عربية، ومئتي مؤسسة للتعليم العالي، وخمسين منظمة عربية غير حكومية تعمل في مجال حقوق الإنسان، وكانت نتائج الاستبيان بشكل مختصر على النحو التالي:

1) غياب استراتيجية عربية في مجال التربية على التسامح وحقوق الإنسان، وأن هناك خلطا بين مفهوم الخطة، وبين المبادئ العامة لحقوق الإنسان.

2) غياب تشريعات خاصة بالتربية على التسامح وحقوق الإنسان.

3) تقر بعض البلدان بعدم الأخذ بحقوق الإنسان لتعارضها-حسب رأيها والشريعة الإسلامية - وهي ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل والنقاش وذلك بالنظر لتعدد القراءات والاجتهادات من بلد عربي إلى أخر في هذا المجال .

ومن يتأمل بعمق في مناهج الحياة المدرسية في بعض البلدان العربية يجد بأن هذه المناهج متشبعة بقيم العنف والدم والغدر. فالتاريخ العباسي والأموي الذي يدرس في المرحلة الإعدادية في بعض البلدان العربية يبرز الجانب الدموي في هذا التاريخ . فواضعو مفردات هذا المقرر لا يجدون في التاريخ العباسي غير القضايا الدرامية الدموية التي كانت تقع بين الحكام وإخوانهم وأبنائهم في صراع مجنون دموي من أجل الوصول إلى الحكم والسلطة. وهكذا تتم عملية غرس قيم الغدر والدم والعنف في نفوس الطلاب والأطفال في وقت مبكر من تاريخ نموهم النفسي والتربوي. ألم يكن **لهذه التربية التي كانت تصر على تلقين كل طفل، خطبة الحجاج عن الرؤوس التي أينعت وحان قطافها، علاقة من نوع ما بالارتداد السهل والسريع عن ممارسة التجربة الديمقراطية والفكر المصاحب** لها(13).

ولا بد من الإشارة في هذا السياق أيضا إلى بعض الممارسات التعصبية لبعض رجال الدين الذين يكرسون وقتهم لغرس القيم الطائفية والتمييز الطائفي في نفوس المؤمنين والمسلمين سواء أكان هذا عن قصد أو عن حسن نية. **فرائحة بعض الخطب الدينية لا تخلو في كثير من الأحيان من بعض التلميحات أو التصريحات التي تحرض على الإحساس بالتمايز وتعزيز الحس الطائفي بين طوائف المسلمين، أو بين المسلمين وغيرهم من الطوائف الدينية الأخرى.**

ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى **بعض الكتب والروايات التي تأخذ لبوسا أدبية بينا هي تبث بعض السموم القائمة على تعزيز مفاهيم وقيم الإحساس الطائفي بين الطوائف الإسلامية.** وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى بعض أعمال الكتاب العرب الذين قدموا روايات التي تأخذ طابعا أدبيا بينما هي تعمل تعزيز العمق الطائفي والعنصري بين فئات الشباب في الوطن العربي.

فالتعصب يمثل سمة بارزة في المجتمع العربي، ولم يعد سمة شخصية للإنسان التقليدي، وحتى الإنسان الحديث في المجتمع العربي يمتاز بهذه السمة. وفي هذا الصدد يقول سعد الدين إبراهيم في وصفه للوضعية

التربوية التي تعزز مفاهيم التمييز العنصري والإباحية الدموية في الخليج العربي: " **إن جيلا كاملا في بعض دول منطقتنا الآن عاش فترة تكوينه النفسي والعقلي في ظل مفاهيم تبيح القتل والتدمير، ولا ترى السلام طريقة عيش ومنهج حياة**"، ومن شب على شيء شاب عليه وهذه قاعدة منطقية " **(14).** فالتعصب بما ينطوي عليه من تصورات نمطية (...) هو شيء مكتسب يتعلمه الأطفال من الكبار خلال عملية التنشئة الاجتماعية السائدة في بلادنا.

وفي مجال التأكيد على وضعية التشبع بالعنف والتعصب يؤكد الباحثون على هذه الحقيقة ف**مناهجنا التربوية مشبعة بمفاهيم الحرب والدمار والعداوة، والبغضاء، والعنف، والظلم، والكراهية**

يقول ليث شبيلات في معرض حديثه عن الحياة الاجتماعية في الأردن: تتمثل محنة الديمقراطية في أن **أجيالا قد تمت تربيتها في أجواء تعصبية غير ديمقراطية فانتقل القمع إلى الشخصية الإنسانية التي باتت مع الزمن مروّضة من أجل البقاء بعيدا عن الاضطهاد .** والمدرسة العربية تسعى إلى (...) إحراز مبدأ الطاعة العمياء والمحافظة على قيم ومعايير المجتمع التي تحافظ على وضعية القهر الاجتماعي. فجزء كبير مما يتعلمه التلميذ ليس له علاقة بمحتويات الدروس وإنما يقصد به طلب الطاعة المطلقة وجعل التلميذ يستهلك استهلاكا **سلبيا كل التحيزات الدينية والقيمية والأيديولوجية التي يزخر بها أي مجتمع (15)**.

وفي هذا الخصوص يرى الخطاب أن **الحياة الاجتماعية العربية متشبعة بقضايا التمييز العنصري واستبداد الأقوياء، واضطهاد الأقليات العرقية**، وخرق المبادئ الإنسانية في المجتمع. وهنا يمكن للتربية أن تؤدي أدوارا في غاية الأهمية والموضوعية، ويكمن دورها في "احترام حقوق الإنسان واحترام حقوق الطفل واحترام حقوق الأقليات، والإيمان بالعدالة الاجتماعية". وهذا يعني على حد تعبير الخطاب " التأكيد على مبدأ التربية الأخلاقية وقيم التسامح بالدرجة الأولى في المدارس والمؤسسات التربوية " . فالمدرسة أداة لإعادة إنتاج الأمر الواقع بكل سلبياته واختناقاته التعصبية لصالح النخبة المهيمنة .

وفي هذه الأوساط التربوية المتسلطة غالبا ما تسود هذه العلاقات التي تفتقر إلى التسامح والحب والحنان والتساند والدعم النفسي، والتعزيز والمساندة والتفاهم، والحوار بين أطراف العائلة، وخاصة بين الآباء والأبناء. وعلى خلاف ذلك كله يسود التنافر العاطفي والتعصب وتهيمن أساليب التسلط والتعنيف وانفعالات الغضب والعدوان وتسود النزعة إلى إيجاد الحلول التربوية عن طريق القوة والقهر. وفي هذا المناخ التسلطي يفرض الآباء على الأبناء أنماط سلوكهم وحركتهم وفعالياتهم ولا يسمح لهم بإبداء الرأي أو الاعتراض.

وتتبدى وضعية التعصب في صورة أساليب التنشئة الاجتماعية السائدة في المجتمعات العربية. وقبل أن نعول على أهمية التنشئة الاجتماعية وخطورة دورها في عملية بناء الجدار القيمي لحقوق الإنسان

والسلام، يترتب علينا بادئ ذي بدء أن نرصد واقع هذه التنشئة بما تنطوي عليه من مبادئ وقيم وأساليب تعتمدها في بناء المنظومة القيمية عند الأطفال والناشئة.

لقد تبين لنا في المستوى التربوي في الوطن العربي كيف يوضع الإنسان في دائرة الاغتراب والجمود من خلال **أساليب التنشئة الاجتماعية القسرية التي تنطلق من التعصب وتصنعه في الآن الواحد.** فالفلسفة التربوية العربية **هي فلسفة ترهيب وتعصب تتنافى مع كل القيم التي تتصل بحقوق الإنسان ومعايير السلام والحب والتسامح.** هنا تتم عملية إعادة إنتاج القهر والتسلط والعبودية في المجتمع بصورة واضحة.

خاتمة :

واقعنا الاجتماعي والتربوي محزن اليوم ونحن نشهد بوادر حروب أهلية عصبية المنشأ في أوطاننا العربية . فالتعصب المذهبي والطائفي بلغ ذروته ومع الأسف فإن الأنظمة العربية الاستبدادية لطالما قامت بتغذية هذه النزعات التعصبية والمذهبية في السر والعلن . وهذا التعصب بكل صيغه وتجلياته ليس قدرا يفرض نفسه ولا يمكن ردعه . وفي التجارب التاريخية العربية بعض العبر لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يستنفر الموحدات وأن يؤكد **سيادة التقاليد الكبرى** التي تعني تدمير التقاليد الصغرى التعصبية ، فالتقاليد الصغرى لا يمكن طحنها بسهولة، **والمهم ألا يتحول الاعتزاز بالقبيلة إلى قبلية، والاعتزاز بالطائفة إلى طائفية والانتماء إلى المذهب مذهبية.**

وفي هذه المرحلة الصعبة من هذا الربيع العربي يجب على المثقفين والمفكرين أن يهبوا اليوم دفعة واحدة لمواجهة مخاطر التعصب ولاسيما التعصب الطائفي والمذهبي لإنقاذ أمتهم وأوطانهم مما يتربص بها من مخاطر كبرى تتمثل في الانقسامات والحروب الأهلية والطائفية التي تطل برأسها في العراق وفي سوريا وفي غيرها من الدول العربية .

وفي هذه المرحلة الجديدة يجب على المربين العرب بناء أنظمة تربوية فاعلة يمكنها العمل دمج الشعوب العربية في ومضة وجدانية تضعهم خارج السياق المرعب لثقافة التعصب ومفاهيم الانغلاق الثقافي . ما أحوجنا اليوم إلى ثقافة وطنية ترسخ في الأطفال قيما جديدة تتمثل في قيم المحبة والتسامح والرفض المطلق لكل مكونات الفكر الطائفي المذهبي الذي يهدد كيان أمتنا ووجودها .

أليس فينا اليوم من ينهض كما نهض كبار مثقفينا في الماضي لصب اللعنة على التعصب بكل أشكاله ؟ ألا يوجد في هذه الأمة غاندي جديد أو فقيه فيلسوف متمرس بالحكمة والعبقرية ليعلن كما أعلن شيخ الصوفية وفقيه **التسامح ابن عربي الذي رسم ميثاقا فكريا وفلسفيا للتسامح فاق بجماله وقيمته الشعرية والأدبية كل ما قيل عن التسامح ونبذ التعصب في دنيا الله الواسعة إذ يقول :**

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ---- إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ---- فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبان

وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ---- وألواح توراة ومصحفُ قرآنِ

أدين بدين الحبِّ أنّى توجهت----ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

نعم دين الحب والتسامح يجب أن يكون ميثاقا للتربية العربية الجديدة التي تستطيع أن تنهل من قيم التسامح والمحبة في الدين الإسلامي والمسيحي حيث تفيض أديان الله بكل القيم الإنسانية التي تنبذ القتل وترفض أن يكون الإنسان عدو الإنسان في أي صيغة كانت أو تجلت .

أليس فينا من يصرخ صرخة المعري رفضا للطائفية والمذهبي في قوله الذي يفيض بحكمة التسامح المطلق حين يقول :

في اللاذقيةِ ضجّةٌ ..... ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوسٍ يدّق .... وذا بمِئذنةٍ يصيح

كُلٌ يمجد دينه ..... يا ليت شعري ما الصحيح

كم نتمنى من أعماقنا أن يتوقف ضجيج التعصب وأن تنقطع آفته في كل مكان من أرض العروبة والإسلام . وكم نتمنى للتربية العربية أن تؤدي دورها التاريخي في ترسيخ قيم التسامح ونبذ العنف والتعصب والطائفية مرة واحدة وإلى الأبد .

مراجع المقالة :

مراجع المقالة :

1- Madeline Grawitz: lexique des Sciences Sociales ,dalloz, Parise, 1983

2- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، السعودية، 1996، (ص12-13).

3- CF, T. W. Adorno, the Authoritarian personality, Harper, new York, 1950.

4- عزت سيد إسماعيل: سيكولوجيا التطرف والإرهاب، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية 16، 1996، (ص8-89).

5- أحمد زكي بدوي ؛ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1978.

6- سعد الدين ايراهيم: التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي، ضمن: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية: الأطفال والتعصب والتربية: احتمالات الانهيار الداخلي للثقافة العربية المعاصرة، الكتاب السنوي السادس، 1989، (صص19-71).

7- علي عيد راغب: مشكلات اجتماعية معاصرة: نماذج مختارة من مجتمعات عربية معاصرة، ط2، مجموعة دلتا، الكويت، 1994.

8- عبد الوهاب الكيالي: الموسوعة السياسية، الجزء1، دار الهدى للنشر والطباعة، بيروت، غ ت .

9- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، السعودية، 1996، (صص12-13).

10- Madeline Grawitz: lexique des Sciences Sociales ov.cite.

11- عبد العزيز كامل و أسامة الخولي: المنظومة الأخلاقية من منظور الدين والعلم، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الطفل والمجتمع دراسات في التنشئة الاجتماعية للأطفال، تحرير محمد جواد رضا، نوفمبر، الكويت، 1993 (صص 413-439)

12- عبد العالي ناصر عبد العالي: في مسألة حقوق الإنسان والديمقراطية والتدريب عليها، الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان، المنظمة العربي لحقوق الإنسان، الكويت، 1993.

13- محمد جواد رضا: العرب في القرن الحادي والعشرين: تربية ماضوية وتحديات غير قابلة للتنبؤ، المستقبل العربي، العدد 230، نيسان /إبريل، 1998، (صص 47-63).

14- سمير هوانة ، قضية السلام في المناهج الدراسية الحديثة، الجمعية الكويتية تربية التسامح وضرورة التكامل الاجتماعي، الكتاب السنوي العاشر 1995.

15- خلدون حسن النقيب: المشكل التربوي والثورة الصامتة، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، المستقبل العربي، عدد 174، آب/ أغسطس، 1993، (صص 67-86).